إنه القرآن

اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (١٤) | الآيات [١٢٧ : ١٣٧]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. نستكمل بإذن الله -عز وجل- ما بدأناه من مجالس تدبر سورة الأعراف المجلس الرابع عشر.

كنا توقفنا عند الآية (١٢٧) عند قوله -سبحانه وتعالى- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ [الأعراف ١٢٧].

آخر مشهد توقفنا عنده في المرة الماضية مشهد إيمان السحرة، في مشهدٍ مهيب أمام الجميع، وأنهم دعوا الله -عز وجل- أن يثبتهم على هذا الإيمان، وأن يتوفاهم مسلمين فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[الأعراف ١٢٦]، وقبل أن يقولوا هذا الكلام تذكَّروا قاعدة مهمة جدًا تُثبِّتُهم وهي قولهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[الأعراف ١٢٥]؛ يقينهم أنَّهم سوف يُلاقون ربَّهم، وسوف يُجازيهم الله -عز وجل- على صبرهم.

انتبهوا جيدًا...

على قدر يقين الإنسان في هذه العقيدة وهذه الحقيقة بأنه سوف يموت حتمًا وفي كل الأحوال سوف يموت، وأنه سوف يُلاقي ربه ويسأله ربُّه -سبحانه وتعالى-، **على قدر يقين الإنسان في هذه العقيدة على قدر ثباته**. وكلما نسي الإنسان قضية الموت والبعث والجزاء، وأن الدنيا دارُ بلاء وأن الآخرةَ هي دارُ الجزاء، إذا نسي الإنسان هذه الحقائق قلَّ ثباته وضَعُفَت عزيمته.

لكن كلما تذكَّر الإنسان أن ((إنَّما الدنيا صبرُ ساعة))، سيصبر على أي أذى كان طالما أنه في سبيل الله -عز وجل- يصبر ويتصبر ويصابر ويرابط، هذه العقيدة، عقيدة اليقين في لقاء الملك -سبحانه وتعالى- ، وأنه سوف يُجازيه على كل فعل فعله، وكل صبر، وكل قطرة دم، وكل قطرة عرق بذلها لنصرة دين الله -عز وجل-، هذه العقيدة إذا استقرت في قلب الإنسان كانت عونًا له على ثباته لنصرة دين الله - سبحانه وتعالى-، لكن إذا انشغل الإنسان بالدنيا وبالناس وبالبلاء الموجود في الدنيا تقلُّ عزيمته. فقالوا:

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[الأعراف ١٢٥] ثم قالوا ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف ١٢٦].

أيضًا؛ لا يُشترط طالما أنهم مؤمنون وأنهم ثابتون وأنهم طلبوا من الله –عز وجل– الصبر والثبات، لا يُشترط –أو لم يَشْتَرطوا– أن يُنَجيهم الله –عز وجل–. بمعنى أن الإنسان أحيانًا يَشترط على الله –عز وجل– السلامة، هو يريد أن يسير في الطريق ولكن يريد أن يَسْلم من كل أذى.

ونحن ذكرنا أن المفسرين اختلفوا هل نفَّذ فرعون وعده أم لا، لكن رأي جماهير المفسرين أن فرعون نفَّذ الوعد، وبالفعل قَتَّلهم وصَلَّبهم وقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خِلاف، لكن هؤلاء حينما طلبوا من الله –عز وجل– طلبوا الصبر، وأن يتوفاهم مسلمين. ففارِق بين من يختار سلامة الطريق، وبين من يختار طريق السلامة:

– هناك أناس تختار طريق السلامة، أي الطريق الذي ينصر الدين، ولكن لا بد أن يكون آمنًا سالمِا ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ﴾[التوبة ٨١]، يريد طريقًا (مُكيفًا) لنصرة الدين.

– ولكن هناك أناس –نسأل الله –عز وجل– أن يُثبتنا على الحق– يختارون التمسّك بالدين أيًا كانت النتيجة، أيًا كان الوقت؛ استضعاف، تمكين، أيًا كان الوقت هو يتمسك بالدين، ويدور معه حيث دار، كما يُروى في الأثر عن ابن مسعود: "دُر مع القرآن حيث دار". أنت تتمسك بالحق، تتمسك بالدين أيًا كانت النتائج، أيًا كانت النتائج الدنيوية، لكن أنت مُوقن أن العاقبة للمتقين في الدنيا وفي الآخرة.

حسنًا؛ نبدأ بآيات اليوم، قال ربنا –سبحانه وتعالى–: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾[الأعراف ١٢٧]

لما انتصر موسى –عليه السلام– على السَّحرة، ثم ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾[الأعراف ١٢٠]، هذا المشهد المهيب بدأ يُؤثِّر في الناس، هذه الهزيمة التي وقع فيها فرعون ووقع فيها الملأ بدأت تُؤثِّر في الناس، بدأت روح الأمل تنتشر، بدأ بنو إسرائيل يكون لديهم أمل في النجاة، أمل في انتهاء مُلْك فرعون، أمل في الخروج من هذه الأرض، أمل في أنَّ موسى –عليه السلام– بالفعل هو الذي كان ينتظره بنو إسرائيل.

لأنه كما ورد في الإسرائيليات: فرعون حينما سأل المنجمين والكهنة، أخبروه أن هذا زمان يَزولُ مُلكه على يدِ مولودٍ من بني إسرائيل، لذلك كان فرعون يُقتِّل الأبناء ويترك النساء "ويستحيي النساء" أي يتركهم أحياء للخدمة، فكان يُقتِّل الذكور، ولما قَتَّل كثيرًا من الأولاد –أيضًا فيما يُروى في

الإسرائيليات- فزِع الملأ وقالوا: الآن أنت تُقتِّل الأبناء، ونحن نحتاج بنو إسرائيل للخدمة ليخدمونا، وتترك النساء وهن يخدمن في المنازل، ولكن نريد مَن يحمل الأعباء الشاقة! فكان يَقْتُل سنة ويترك سنة، فكان هناك سنة اسمها سنة القتل وسنة الترك.

وقيل أن هارون -عليه السلام- وُلِد في سنة الترك. لذلك ولادة هارون -عليه السلام- لم يحدث فيها نفس القضايا والإشكاليات التي حدثت مع ولادة موسى -عليه السلام-، أما في ولادة موسى -عليه السلام- أمه ألقته في اليمّ خوفًا من أن يُقتّل، هذا ما ورد في بعض الإسرائيليات.

أيًا كان، فكان بنو إسرائيل في هذه اللحظات ينتظرون من ينقذهم، فلما انتصر موسى على السحرة وآمن السحرة، بدأ الأمل يَدبُّ في قلوب الناس. وبنو إسرائيل عاشوا زمنًا طويلًا في الاستضعاف، والتقتيل، والتشريد، والخدمة فأصابهم الذُّل؛ تعوَّدوا هذه الحياة، تعوَّدوا الذُّل والمهانة.

فعندما يأتي إنسان يبث روح الأمل، والعزة، والقوة مرةً أخرى، هذا يشكل خطرًا كبيرًا على الملوك الظلمة؛ أن يأتي إنسان يبث روح العزة، والأمل، والقوة، وأن هناك أمل، وأننا نموتُ شهداء خيرٌ لنا من أن نعيشَ أذلة، هذه المعاني خطيرة جدًا على الملوك الظلمة، ويخافون من انتشارها. فبدأ الملأ يشعرون بانتشار هذه المعاني بين بني إسرائيل؛ يتكلمون بأن موسى هو المُنْتَظر، وأنه بالفعل سوف تتحقق البشرى، وأنه سوف يَسقط مُلْك فرعون على يده، وأن أقرب الناس إلى فرعون بدأ يؤمن كالسحرة، آمنوا بموسى، وأيضًا إيمان السحرة كان قويًا؛ كان نموذجًا قويًا أمام بني إسرائيل؛ فصبروا على ما عُذِّبوا وقُتِّلوا وصُلِّبوا.

لما بدأ الأمل ينتشر فزِعَ الملأ من ذلك، فانطلقوا مباشرةً إلى فرعون ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾، وقد ذكرنا أنه في سورة الأعراف الملأ هم المحرك الرئيسي، فهنا الملأ بدأ يتحرك مباشرةً، لأن الملأ يخاف على مُلكه أيضًا، لأن مُلك الملأ، وسلطان الملأ من سلطان فرعون كلهم معًا، الجميع في سلةٍ واحدة.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف ١٢٧]
يستفزون فرعون، يستثيرون فرعون؛ يقولون أنسيت؟ ألا تشعر بتأثير إيمان السحرة على الناس، ألا تشعر بذلك؟! بل قال بعض أهل العلم أن فرعون نفسَه بدأ يتأثر من المشهد، وبدأ يَخاف من أن يزولَ مُلْكُه،

فالملأ أراد أن يُثبِّت فرعون، وأراد أن يُحرِّك فرعون ليأخذ خطوات عملية لإيقاف وقطع وقتل روح الأمل، وطعن هذه البُشرى التي بدأت تنتشر بين الناس.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دائمًا –كما ذكرنا– المخرج الأساسي عند فرعون مسألة الإفساد في الأرض؛ إنهم أرادوا أن يخرجوكم من الأرض، أو أرادوا أن يفسدوا في الأرض؛ قضية الأرض والوطن هذا هو الوَتَر الذي يَلعب عليه دائمًا كل الملوك الظَلَمة؛ مسألة: أنا خائف على الأرض، أنا خائف، أنا أريد الإصلاح، أنا أخاف من الفساد، أخاف من انتشار الفساد، كما قال فرعون في سورة غافر: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[غافر ٢٦]، فهنا يذكِّرونه أيضًا بما سيقول.

﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف ١٢٧]، هنا نقطتين:

- النقطة الأولى: معنى كلمة ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ والخلاف بين المفسرين.
- والنقطة الثانية في الآية: – قرار التقتيل الجديد، القديم الجديد، تكرير القتل، وأن فرعون لا يملك إلا البطش والقتل حينما تنقطع حُجَّتُه ويَخسر المناظرة؛ هو ادَّعى أن موسى عليه السلام –وحاشاه– ادعى أنه ساحر، وأتى بالسحرة، وهُزِم فرعون، وهُزم الملأ، وآمن السحرة، لما انقطعت الحجة يعودوا مباشرةً إلى البطش، والتقتيل، والتعذيب، والتشريد.

حسنًا؛ ما معنى ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ ؟

– ﴿يَذَرَكَ﴾ أي يترك فرعون، أي أن الناس ستبدأ بعصيان فرعون ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أن موسى وقومه سيفسدون في الأرض، قالوا وما هو الفساد؟ أنهم يؤمنون بالله –سبحانه وتعالى– فهم اعتبروا أن هذا فسادًا. ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي أن موسى وقومه سوف يتركونك، لا يطيعونك.

- ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ أين الإشكالية في هذه الكلمة، والتي جعلت كثيرًا من المفسرين يتوقفون عند هذه اللفظة؟

الإشكالية هنا: كيف يقولون له ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ وهو يدعي -أي فرعون- أنه ربهم الأعلى ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص ٣٨]؟ فكيف جاءت هنا الآلهة بالجمع ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ ؟ ثم كيف أضيفت إليه بالكاف ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ ؟

لننظر كيف تعامل بعض المفسرين مع هذه اللفظة:

١- بعض المفسرين حاولوا أن يفسروا هذا المعنى من قراءة أخرى، لكن القراءة الأخرى شاذة ليست متواترة، ليست في العشر المتواترة (وَإِلَاهَتَكْ)، مَرْوية عن ابن عباس لكن القراءة الشاذة بمعنى أنه يجوز أن نستفيد منها في التفسير لكن ليس في القراءة، فقالوا إن (إلاهتك) بمعنى طاعتك وعبوديتك. فمعنى ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ لو أن (إلاهتك) المقصود منها التفسير: أي يذرك ويترك طاعتك، أي يترك القوانين التي وضعتها أنت.

فأول قول: أن ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي يذرك ويترك طاعتك وعبوديتك، لا يعبدونك، الآلهة لما أضيف لها (كاف) فرعون ستكون الآلهة هنا بمعنى الطاعة، آلهتك: أي طاعتك. هذا قول.

٢- القول الثاني: أنه كان هناك آلهة موجودة بالفعل، وهذا موجود في التاريخ الفرعوني القديم، أنه كان هناك آلهة فكانوا يعبدون الشمس، ويعبدون القمر، ويعبدون الثور.

فهنا اختلفوا هل كان فرعون عندما يقول أنا ربكم الأعلى كان يدَّعي أنه الخالق أم كان يدعي أن طاعته واجبة؟ أم ماذا؟

وهذا يحتاج أن نضم إلى علم التفسير علم التاريخ وإن كنتُ ضعيفًا جدًا في هذه المسألة لكن سأذكر لكم ما قاله بعض المفسرين:

- بعض المفسرين قال نعم هو ادعى ذلك وهذا ممكن أن يكون قول المتقدمين وقلة من المتأخرين، وهم قليل لأنه فعلًا كيف يدَّعي فرعون ذلك أنه الخالق وكيف يصدقه الناس؟ وماذا عن الفرعون السابق والفرعون الذي يليه لأنهم كانوا فراعنة متتالية فهل الفرعون السابق هو أيضا الذي خلق؟!

- وبعضهم اعترضوا على هذا وقالوا: هو لم يدَّعِ أنه الخالق، هو كان مثلما قال الصديق حسن خان في تفسير فتح البيان، قال كان دهريًّا لا يؤمن بوجود الرب، لكن هناك تعدد آلهة، هو كالملحد، لكنه لا ينفي كل الآلهة، بل هو ينفي الخالق الواحد، لكن توجد آلهة متعددة هي التي تحرك الكون.

لذلك كانوا يعبدون آلهة كثيرة، كانوا يعبدون الشمس يعبدون القمر، كل مشكلة لديهم يصنعون لها آلهة ويعبدونها، فمثلًا مشكلة في المطر يصنعون آلهة للمطر ويعبدونها، لديهم مشكلة في الجمال يجعلون آلهة للجمال ويعبدونها، على أي مشكلة لديهم في الحيوانات يصنعون آلهة ويعبدونها.

- وقال بعضهم أنهم كانوا يعتقدون -وهذا من أشهر الأقاويل واختاره ابن عاشور- أنه كان هناك إله كبير، وهناك آلهة كثيرة صغيرة، وأن الإله الكبير كان يحل في روح فرعون فيخبر الناس بمراد الإله الكبير.

مرة أخرى؛ كيف كان نظام الآلهة عندهم؟ أن هناك إلهًا كبيرًا سواء اختلفوا هل اسمه رع إله الشمس -أو أيا كان اسمه إيزيس أو أوزوريس أو أيا كان اسمه- هناك إله كبير وهناك آلهة متعددة صغيرة، وأن الآلهة الصغيرة هذه تحت الإله الكبير.

فما هو دور فرعون في هذه المنظومة؟ فرعون هو الذي تَحلّ فيه الألوهية، قضية الحلول، عقيدة الحلول أن الآلهة الكبيرة تحل في روح فرعون فينطق على لسان الآلهة، فما يقوله فرعون هو كلام الآلهة، ولذلك يعتبر نفسه الإله وكلامه شرع بالنسبة لهم، كلامه دين، كلام فرعون هو مراد الآلهة، فعندما يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات ٢٤] و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[القصص ٣٨]، أي أنا الذي أشرع، لا أحد يستطيع أن يعرف مراد الآلهة غيري فلا بد أن تعبدوني، فطاعتي طاعة للآلهة.

ووضع لهم آلهة كثيرة يعبدونها، فقالوا: ﴿يَذَرَكَ﴾ أي يذرون طاعتك ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ وطاعة الآلهة التي وضعتها أنت لهم، فكان فرعون يحدد آلهة ويأمرهم بطاعة الآلهة

مثلما كانت قريش تضع أصنامًا وتجعل الناس يطوفون حول هذه الأصنام، هم الذين اخترعوا الأصنام ثم يأمرون الناس بعبادة هذه الأصنام، فكذلك كان الفراعنة يختارون الآلهة ويأمرون الناس بعبادة الآلهة، لكن كل هذه الآلهة الصغيرة تحت فرعون، أي أن فرعون لا يَعْبُدها ولكن يأمر الناس بعبادتها.

فكلمة ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ أي الآلهة التي أمرت أنت بعبادتها.

إذًا، **فالقول الأول**: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ بمعنى طاعتك وعبادتك.

القول الثاني: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ أي الآلهة التي أمرتهم أنت بعبادتها، أنت وضعت لهم آلهة وأمرتهم بعبادتها.

٣- القول الثالث:- أن فرعون كان هو أيضًا يعبد الآلهة سواء كانت الآلهة صنم يعلقه في رقبته، أو أيا كان الشمس أو.. أو لأن بعضهم قال أن (رع) إله الشمس، ولأن كلمة فرعون فيها كلمة رع أيضًا، متضمنة كلمة رع، وأنه كان يعبد الإله الكبير، فقالوا: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ أي أيضا يكفرون بالآلهة التي تعبدها أنت، فأيًّا كان فرعون يعبد ويأمر الناس بعبادته، أو هو لا يعبد شيئًا ويأمر الناس بعبادته وعبادة الآلهة.

إذًا؛ القول الثالث: الآلهة التي تعبدها أنت.

إذًا؛ **القول الأول**: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ يذرك وطاعتك.

القول الثاني: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾يذرون الآلهة التي أمرتهم أنت بعبادتها.

-وبعض المفسرين أشار إشارة صغيرة لمسألة؛ أنّ فرعون كان يُقَسِّم الآلهة، ويجعل لبني إسرائيل آلهة يعبدونها غير آلهة القبط، فكان يختار لهم بعض الآلهة التي لها تصوّر حقير مثلًا كالحشرات، دواب، العجل، وقالوا: إن السامري تأثّر بعبادة العجل. أنه كان يأمر بني إسرائيل بعبادة العجل، وقال بعض أهل العلم: لا، بل القبط أنفسهم كانوا من الآلهة التي يعبدونها العجل، والسامري تأثر وانبهر بهم، لذلك سيأتي معنا -إن شاء الله- المرة القادمة: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾[الأعراف ١٣٨] أي ما زالوا متأثرين بعبادة الأصنام، وهذا كان موجودًا عند الفراعنة-.

القول الثالث: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي يتركونك ويتركون الآلهة التي تعبدها أنت.

٤- القول الرابع: أشار إليه القاسمي. ومن يريد أن يستفيض في هذه المسألة يراجع كلام المتأخرين؛ غالبًا كلام رشيد رضا في المنار وابن عاشور في التحرير، هؤلاء استفاضوا في هذه المسألة، ورشيد رضا استفاض جدًا وأتى بتاريخ المصريين والخلاف، ومن هو فرعون، وهل هو رمسيس أم منفتاح ومن أي أسرة وسليل الشمس، واستفاض في المسألة.

القول الرابع: أشار إليه القاسمي، قال إن بعض اللغات العِبْرانية تقول أن الآلهة هنا بمعنى القُضاة ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي يذرك وقضاتك، القضاة الذين وضعتهم ليحكموا بين الناس. معنى سيتركونك ويتركون شريعتك، لن يتحاكموا إليك، وإن كان القاسمي لم يرجح هذا القول، لكن هذا القول أيضًا ممكن أن نستفيد منه كيف؟ من حديث أيضًا وإن كان في سنده كلام لكنه مقبول عند جماهير أهل العلم، (حديث عدي بن حاتم الطائي لما جاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقرأ عليه آية المائدة أنهم يتخذون المسيح ويتخذون أهل الكتاب أربابا من دون الله فتعجب قال نحن لم نتخذهم أربابا من دون الله، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– سأله أليس يشرعون لكم وتطيعونهم فقال بلى قال فتلك عبادتهم)[١].

فمسألة الآلهة هنا أي الشرع، آلهتك أي القوانين على ألسنة القضاة التي وضعتها لهم، أي سيتركونك – يتركون فرعون– ويتركون التحاكم إليك.

فالشاهد من الأربعة أقوال: أنّ ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ سوف يزهدوا فيك، لم يعد بنو إسرائيل منبهرين بك. ستتلاشى قضية الآلهة والتعظيم، وبدأ الخوف يموت في قلوبهم، لم يعودوا خائفين منك، ولا من الآلهة، لا بدّ أن تفعل شيئًا لتعيد الرهبة مرة أخرى إلى قلوبهم.

[١] [عن عدي بن حاتم الطائي]: قدمَ [عديُّ بنُ حاتم] على النَّبيِّ ﷺ وهو نصرانيٌّ فسمعه يقرأُ هذه الآيَةَ: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَما أُمِرُوا إِلّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا واحِدًا لا إِلَهَ إِلّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ قال: فقلتُ له: إنّا لسنا نعبدُهم، قال: أليسَ يحرمونَ ما أحلَّ اللهُ فتحرِّمونَه، ويحلُّونَ ما حرَّمَ اللهُ فتحلُّونَه، قال: قلتُ: بلى، قال: فتلك عبادتُهم
ابن تيمية (ت ٧٢٨)، حقيقة الإسلام و الإيمان ١١١ • حسن

فغضب فرعون وقال لما سمع هذا الكلام أنهم سيتركوه ويتركون الآلهة، قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾[الأعراف ١٢٧] ليس سنَقْتُل بل سنُقَتِّل –بالشّدّة أو التضعيف– أي للقوة وما فيها من التكلُّف. ﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي نتركهم أحياء –عكس ما قد يتوارد إلى أذهان الناس أن معنى نستحيي: نغتصب لا بل المعنى نتركهم أحياء– إذًا نستحيي "الألف والسين والتاء" كأننا نطلب حياتهم لا نقتلهم، عكس ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ يقتل الذكور والرجال حتى لا يكون هناك قوة وبذل، ثم نترك النساء ليعملوا في خدمتنا.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾، ما علاقة ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾؟

– أي يريد فرعون أن يثبت أنه لم يتأثر نهائيا بإيمان السحرة، لم يؤثر إيمان السحرة ولا انتصار موسى –عليه السلام– في المعادلة شيئًا! ما زلنا أقوياء، ما زلنا نمسك بزمام القوة نحن من يقهرهم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ﴾ المعادلة لم تتغير شيئًا. عندما بدأ فرعون يخاف على ملكه أراد أن يؤكد أنه ما زال على كرسيه، ما زال على ملكه، لم ينفلت أحد من المملكة... ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كأنه يريد حتى نبين لهم أننا ما زلنا فوقهم قاهرين فقال ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾.

مسألة التقتيل، لماذا إعادة أمر القتل مرة أخرى؟ حملة التقتيل الجديدة والتشريد والتعذيب الجديدة ما الغرض منها؟

– قتل الأمل الذي بدأ ينتشر عند الناس، لذلك تجد الملوك الظلمة دائمًا إذا قام أحد الناس ليبث روح العزيمة والأمل والبشرى والانتفاض، وكما قلنا حياة العزة مرة أخرى هذا يغضبهم، فيسارعون إلى قتل هذه الروح عن طريق التخويف، وغالبًا ما يؤثر هذا الخطاب.

أيضًا سنجد أن فرعون بعد كل أزمة يمر بها كان حريصًا على خطاب إعلامي، ففرعون والملأ والسحرة من قبل لما كانوا معه كانوا حريصين جدًا على استغلال الإعلام، أن يجعل الشعب كله معه، فيقوم ويقول ويدَّعي أنه منصف ويأخذ برأي الناس، فيقول: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾[غافر ٢٦] وكأنه لا يتحرك في المملكة إلا بالمشورة، ويقول: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[الشعراء ٣٥] في سورة الشعراء، ويقول: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ أنا خائف عليكم، أنا لا أتحرك إلا خوفًا عليكم ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[غافر ٢٦].

فكان كلما تحدث أزمة يظهر فرعون بخطاب إعلامي يُثَبّت الناس، يريد أن يجعل الناس تعيش معه في الوهم وفي المشكلة، أي يقول للناس أنا أتحرك لأجل مشاكلكم لا لأجل نفسي، كان حريصًا على هذا دائمًا بعد كل موقف. فبعدما آمن السحرة خرج فرعون، وقال الملأ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[الأعراف ١٢٧] فخرج فرعون بخطاب لا بد أن نقضي على هذه الفتنة الجديدة مرة أخرى، هذه الفتنة التي انتشرت، التي تريد أن تُحدث فتنة في البلاد سوف نقضي عليها ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[الأعراف ١٢٧]

ف ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ مباشرةً ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ لا بد لكل خطاب إعلامي من الملوك الظلمة يقتل الأمل، لا بد أمامه خطاب من المصلحين يبث الأمل والبشرى وتبيين سنن الله –عز وجل– للناس، فردَّ موسى –عليه السلام– على كلام فرعون مباشرة، عندما تقرأ الآيات قال فرعون ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ * قَالَ مُوسَىٰ﴾[الأعراف ١٢٧–١٢٨] مقابلًا لهذا القول مباشرةً.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾[الأعراف ١٢٨]، فرعون توكل على قوته ونحن نتوكل على الله، هو يعتمد على التعذيب والتشريد ونحن نتوكل على الله –عز وجل–، نستعين به سبحانه وتعالى ونتصبّر به.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف ١٢٨]، نجد أن موسى عليه السلام اعتمد خِطابه على أمرين:

- **الأمر الأول**: الكلام العملي، الناس دائمًا تعتقد أن الواجب العملي أنه يجب أن يكون هناك أعمال معينة نقوم بها وبتراكم هذه الأعمال نخرج من الواقع الذي نعيشه –الاستضعاف–.

– دائمًا في أزمنة الاستضعاف الناس تقول ما هو الحل؟

– فتقول: الحل أننا نصبر ونستعين باللّه ونفعل ما في وسعنا، فيقول: لا، ليس هذا هو الحل!

– فتقول: ماذا تريد؟ يقول: أنا أريد حلًا، أن تقول لي اليوم سنفعل كذا وغدًا كذا وبعده كذا، وترسم لي خطة من اليوم من اللحظة الآنية التي أسمعك فيها إلى وقت محدد وميعاد محدد يحدث فيه التمكين، ترسم لي خطة، أيّ خطة ليست مرسومة ستبين لنا من لحظة الاستضعاف إلى لحظة التمكين لن أسير فيها.

- فتقول له: نحن نفعل ما أُمِرنا به ونتوكل على الله -عز وجل- ليس بوسعنا إلا هذا، يرفض ويقول: لا هذا لن يؤدي إلى التمكين، ويطلب منك أن تعطيه أفعالًا تؤدي إلى التمكين مباشرة! تقول له مثلًا نفعل كذا، تعال ندعو إلى الله -عز وجل- ونعلم الناس الخير، يقول لا، كيف سيؤدي هذا إلى التمكين؟ ارسم لي خطًا مباشرًا بين هذا الفعل وهذا التمكين.

المصلحون لا يملكون عصا سحرية، لا يملكون ذلك، لا يملكون التغيير اللحظي الآني للواقع لا يملكون، هم أُمِروا بأشياء من الله -عز وجل- يُطبقونها، طالما أنهم لا يصفقون للظالم لا يقفون في صفه، لا يدعمونه، فهم يفعلون ما بوسعهم، فأنت تفعل ما أُمرت أنت به أيضًا.

فمسألة أن موسى عليه السلام أمام هذا الخطاب قال ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾، من الممكن أن يأتي شخص في هذا الزمان فيقول: هذا ليس حلًا، حسنًا هذا ليس حلًا، فما الحل الذي لديك؟!!. عندما تكون ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ ليست حلًّا، فماذا يكون الحل؟! نقتل فرعون؟! لو استطعت قتله لقتلته من غير تفكير فما الحل؟!! -يرد- أن نحاربهم، أيضًا لو استطعنا أن نحاربهم لحاربناهم!

أي أحيانًا الناس ترفض حلولًا واقعية ثم يدعون حلولًا وهمية، ويُعاتبك على أنك لا تفعل هذه الحلول! حسنًا ثم ماذا؟ يقول: الحل أن نفعل كذا، كذا هذا الذي تريد ليس موجودًا، بل مستحيل الآن!

فقال موسى -عليه السلام-: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ لا تنسوا الاستعانة بالله -سبحانه وتعالى-، لا تنبهروا بملكه وكرسيه، وسلطانه وقوته، وجنوده وملئه استعينوا بالله، أنتم تملكون الإيمان الذي في قلوبكم، الذي لن يجعل الله لأحد سلطانًا على قلوبكم، فقال: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾.

فأحيانًا **الصبر يكون حلًا**، أحيانًا الزمن يكون جزءًا من العلاج، أن تصبر وتثبت على موقفك، أن تموت مرابطًا في مكانك هذا حل!، وأن تكون لَبِنَة في بناء التمكين، ولا يشترط أن تكون أنت القصر؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم-يقول عن نفسه: (مثلي ومثل الأنبياء...)[٢] ثم قال: (إنما أنا لَبِنَة)، تخيل النبي -صلى الله عليه وسلم -في بناء التوحيد الذي أقامه هو والأنبياء على مدار الزمان، فيقول عن نفسه: (وإنما أنا لبنة في هذا البناء)! هو كان أفضل لبنة -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن القصر كان جميلًا

---

[٢] [عن أبي هريرة]: إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الأنبياءِ كمَثَلِ رجُلٍ بنى دارًا فأكمَلها وحسَّنها وبقِيَتْ مِن زاويةٍ مِن زواياها موضِعُ لَبِنةٍ فجعَل النّاسُ يطيفونَ ببُنيانِه يتعجَّبونَ ويقولونَ فهلّا وضَع ها هنا لَبِنةً فأكمَل بها بناءَه فأنا ذلكَ أنا خاتَمُ النَّبيّينَ لا نَبيَّ بعدي
الطبراني (ت ٣٦٠)، المعجم الأوسط ٣١٨/٣ • لم يرو هذا الحديث عن حبيب بن سالم إلا محمد بن سعد تفرد به محمد بن فضيل

إلا موضع لبنة، وازداد القصر جمالًا بوجود هذه اللبنة، في التمثيل الذي ضربه لنا النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال: (إنما أنا لبنة).

كثير من الناس لا يريد أن يكون مجرد لبنة في البناء، أنت مجرد لبنة، أو جسر، أو حتى خطوة في الطريق، قد تموت ولا ترى شيئًا من النصر، وقد لا يحدث تغيير مُشاهد ملموس، التغيير يأتي ببطء ولكنه حتمًا سيأتي، لذلك قال الله تعالى لهم: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾[الأعراف ١٢٨]

﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾ عقيدة لا تتبدل، ليس معنى أن فرعون اليوم يُقتّل ويُشرد ويعذب، أننا ننسى أن الأرض لله، فلما قال فرعون سنقتل أبناءهم، فيخبرهم موسى -عليه السلام - أنه لا يفعل هذا بعيدًا عن قدرة الله، الله -عز وجل- لو أراد أن ينتقم منه لفعل- سبحانه وتعالى-. يؤكد موسى على هذه العقائد التي ينساها الناس في وقت البلاء.

فقال: ﴿إِنَّ﴾ بالتأكيد ﴿ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾، "لام الملكية": ﴿لِلَّهِ﴾ -سبحانه وتعالى- يملكها، ويورثها من يشاء من عباده، وغالبًا التمكين يأتي بجهد لا يماثل ولا يشابه النتيجة؛ فالتمكين أمر عظيم جدًا، يأتي بجهد غير مناسب للتمكين، فسماه الله وراثة، لأن الذي يرث شيئًا لا يتعب في تحصيله.

* هذه ليست دعوة للخلود والقعود إلى الأرض كما فعل بنو إسرائيل، وقالوا ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة ٢٤] ولكن أقول: ابذل ما في وسعك!! ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[الحج ٧٨] حينما تبذل ما في وسعك، ولا تجد تغييرًا ملموسًا على أرض الواقع، لا تُحبط، ولا تيأس!! **فهناك تغيير يحدث الآن بإذن الله -عز وجل- في جنتك**، الذي يبحث عن التغيير اللحظي المباشر، فلينظر إلى الجنة، مع كل قطرة عرق تبذلها لنصرة الدين، بإذن الله -عز وجل- يحدث تغيير في جنتك، حينما تقول: (سبحان الله وبحمده)[3] تُغرس لك نخلة الآن في الجنة، الذي يبحث عن التغيير الدنيوي فقط يُحبط، لأن سُنَّة الله -عز وجل- للتغيير في الأرض بطيئة، التغيير يأتي ببطء، وفيه مداولة كما يحدث بين الليل والنهار.

لذلك من أرادوا التمكين سريعًا وظنوا أنه بمجرد مجيء موسى سيحدث تغيير؛لذلك أُحبطوا، فقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾[الأعراف ١٢٩]، يريدون أن يقولوا: "أنت بمجرد مجيئك،

[3] [عن جابر بن عبدالله]: من قال: سبحان اللهِ العظيمِ و بحمدِه، غُرِسَتْ له نخلةٌ في الجنَّةِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ٦٤ • له شواهد • أخرجه الترمذي (٣٤٦٤) واللفظ له، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٦٣) باختلاف يسير

كان لا بد أن يحدث تغيير، لكن ما زال الأذى مستمرًا!". كما يعتقد البعض، تخيل مثلًا حينما بُعث النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يعتقد لمجرد بعثته –صلى الله عليه وسلم– أنه لا بد أن تتكسر كل الأصنام، وأن يموت كل المشركين! **ما دور المؤمنين إذًا؟!**

إذا كان بمجرد البعثة سَيَحدث تغيير سحري في الأرض، ما دور المؤمنين إذًا؟!

﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ﴾[محمد ٤] ابتلاءات.

فعندما لم يُحدث خطاب موسى –عليه السلامّ– تغييرًا فوريًا كما فعل خطاب فرعون؛ خطاب فرعون أثّر في بني إسرائيل وخافوا، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[الأعراف ١٢٨]، سيدنا موسى يخبرهم: "إني لا أعدكم بالتغيير اللحظي، لكن أعدكم أن العاقبة تكون للمتقين" العاقبة: النهاية كما قلنا في أول قصة سيدنا موسى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ...﴾[الأعراف ١٠٣]، قلنا أن المتدبر والمتأمل ينظر إلى العاقبة لا إلى البدايات فقط.

لذلك ابن عاشور يقول: "حينما تأتي العاقبة معرفة بال –الألف واللام– في القرآن فهي عاقبة طيبة، عاقبة حُسنى، لكن أي عاقبة إذا أراد الله بها عاقبة سيئة تأتي مضافة مثل قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[4]. فحينما يقول "العاقبة" فهي للمتقين؛ فالعاقبة الطيبة النهائية لا تكون إلا لأهل الإيمان، لكن لا يشترط أن كل من يعيش سيرى هذه العاقبة، هذه سنن، وعدم فهم هذه السنن يؤدي إلى سوء ظن بالله.

أحيانًا يظن الإنسان بالله أشياء لم يخبرنا الله –عز وجل– بها، ثم يحاسب الشرع ويحاسب ربه على هذه الظنون؛ فأحيانًا يدّعي أن الله –عز وجل– سينصره حتمًا في هذا الموقف، يقول: نصرك الذي وعدت، هل وعدك الله بالنصر في هذا الموطن تحديدًا أم أن الوعد عام؟!

لذا هناك درس مهم جدًا عن كيفية التعامل مع وعود الله –عز وجل –، فأحيانًا يؤدي التعامل الخاطئ مع وعود الله إلى سوء ظن بالله، نجد أن سيدنا موسى يقول: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾[الأعراف ١٢٩] وسنجد أن

[4] ذكرت هذه الآية في [آل عمران ١٣٧]، [الأنعام ١١]، [النحل ٣٦] و[الزخرف ٢٥].

سيدنا محمد في نفس السورة يقول: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف ١٨٨]، وسيدنا شعيب قال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الأعراف ٨٩].

فترى أن هناك احتراز ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾[الأعراف ١٢٩] وهؤلاء هم الأنبياء، هذا كليم الله يقول: ﴿عَسَىٰ﴾، وهو معه وعد من الله –عز وجل-، لكن يقول ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾. استعمل فعل (عسى).

وتجد في المقابل بعض الناس في الزمن الحاضر يعطي وعودًا يقينية، أنت ستنتصر بنفسك! لا يقول أن الإيمان سينتصر! هذا يؤدي إلى خلل نفسي عند بعض الناس؛ حينما يسمع هذه الوعود ثم ينزل إلى الواقع، ويُؤذى ويُسجن ويُشرد ويُقتل، فهو أثناء لحظات التعذيب يسيء الظن بالله، والناس من حوله يسيئون الظن بالله، ويقولون أين النصر؟!

*** النصر للأمة، للمجموعة، ليس للأفراد!**

كما قلنا، ونكرر أن القرآن يأتي دائمًا في أوقات الاستضعاف؛ ليؤكد على أن الدين سينتصر لا أنك أنت ستسلم! والله–عز وجل– أورد لنا نموذج السحرة الذين آمنوا وماتوا شهداء، وقال موسى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[الأعراف ١٢٨].

﴿قَالُوٓاْ﴾، هناك شخصيات دائمًا عجولة متوترة مع كل بلاء، حالة من الهلع والفزع؛ فهم ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[الأعراف ١٢٩] أي لا فائدة، لا أمل، كل خبر سيسمعه يقول: كل المساجد ستغلق، انا سمعت خبرًا يؤكد هذا...حين سمع خطاب فرعون ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [الأعراف ١٢٧] فيقول: انتهى الأمر، الدعوة ماتت! هناك أناس يفكرون بهذه الطريقة، مع كل خبر يسمعه يظن أن الأمر انتهى حقًّا، فتخبره أنه في المرة الماضية قال مثل هذا، وبفضل الله الناس مستمرة والدين مستمر، "فيقول: لا، هذه المرة تآمرت علينا الدول، وسيهدمون ويحطمون"!

***فَوّض الأمر لله، وحتمًا الأمر سيتم.**

حتى إذا أصيب الإنسان في الطريق، فإن هذا الدين حتمًا سينتشر، لكن أمثال هؤلاء الناس دائمًا في توتر، في حالة من الهلع، تجده مع كل تصريح لأهل الباطل يفزع، دائمًا يميل إلى صيغ العموم والتفخيم والتعظيم.

الشخصيات المتوترة لا بد أن يُردّ عليها حتى لا تَبث روح اليأس؛ لأن اليأس أحيانًا يأتي من داخلنا لا من خارجنا، قضية الهزيمة النفسية تكلمنا عنها في المرة الماضية في المناظرات، وكيف أن السحرة حاولوا أن يهزموا موسى -عليه السلام- هزيمة نفسية قبل المناظرة.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾[الأعراف ١٢٩] وهذا نوع من التعجل. بعض المفسرين قال: لماذا قال الله" تأتينا وجئتنا"؟ هل المقصود (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما أتيتنا) أي أن هذا التنوع يُدعى في اللغة نوع من التفنن في الألفاظ فقط، لكن هو نفس المشهد؟!

- بعضهم قال: لا (تأتينا) في ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾: أي قبل أن تولد. ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ أي: بعد ما جئتنا بالرسالة والمعجزة؛ أي نحن نتعرض للقتل من قبل أن تُولد، ففرعون كان يقتل الأولاد؛ بسبب الرؤية التي رُويت له، أو كلام المنجمين له أنه سوف يأتي مولود من بني إسرائيل- يزول ملك فرعون على يديه، فقتل الأولاد.

فقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ أي: من قبل ولادتك، ومجيئك إلى الدنيا. ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ أي: ومن بعد ما جئتنا بالمعجزة، فكنا متوقعين أنه بمجرد ولادتك سينتهي التعذيب، أو بمجرد وقوفك أمام فرعون سينتهي التعذيب؛ هؤلاء المتعجلون.

- وإن كان ابن عاشور أنكر هذا المعنى، قاله بعض المتقدمين وابن عاشور أنكر هذا المعنى. فقال: المقصد هو نفس اللفظ (تأتينا وجئتنا) أي: قبل أن تأتينا بالمعجزة، وبعد ما جئتنا؛ أي قبل المجيئ وبعد المجيء، الإيذاء مستمر، أنت لم تغير شيئًا، فبدأوا يشكّون أن النصر سيكون على يديه، فبدأوا يشكّون في وعود الله -عز وجل-.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾.

قال موسى، أي خطاب فيه نوع من الهلع والفزع لا بد أن يكون في الرد عليه خطاب تثبيت، حتى لو المتكلم لا يقصد اليأس، كما حدث مع خباب حينما أتى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ألا تدعوا لنا ألا، تستنصر لنا)[٥]؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والله ليتمن الله هذا الأمر). لم يقل

[٥] [عن خباب بن الأرت]: شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ

"والله لتنتصرن يا خباب"، خباب انتصر، خباب رأى النصر، رأى التمكين، لكن القاعدة؛ أن الوعد للدين، لعموم الدين، وليس للأفراد. (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب المؤمن) أيًّا كان المؤمن، أيًّا كان من يسير (من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه) إذًا الوعد يكون لعموم الأمة، وليس لأفراد معينة فيها.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾[الأعراف ١٢٩] كنتم مستكبرين، ومستنكرين أن يموت فرعون والله قادر على ذلك، وحين قلت لكم: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[الأعراف ١٢٨] استعظمتم ذلك!!

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف ١٢٩]، الأمر بسيط جدًا، فرعون مجرد امتحان من الامتحانات، تمامًا مثلما تمسك ورقة الامتحان، فهناك امتحان استضعاف، وهناك امتحان تمكين... هناك امتحان بلاء، امتحان ضراء، وهناك امتحان سراء ...هناك امتحان فقر وهناك امتحان غنى؛ من الممكن أن يأتي في امتحان أحدهم سؤال واحد فقر، وممكن أن يأتي أحدهم سؤال واحد غنى، والآخر يأتيه سؤالان، وأحدهم يمر بمرحلة استضعاف ومرحلة تمكين، وهناك عبد يمر بمرحلة التمكين فقط، وآخر يمر بمرحلة الاستضعاف فقط.

الله –عز وجل– هو الذي يغير هذه البلاءات، والله أعلم حيث يجعل البلاء، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[الأنعام ١٢٤] أعلم حيث يجعل البلاء، (ويُبتلي المرء على قدر دينه)[6]، ويختار الله ويصطفي أناسًا للوجود في هذا المكان وهذا الزمان. فقال: الأمر أبسط من ذلك ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف ١٢٩]

القضية أيضا أنكم ستنتقلون من بلاء إلى بلاء طالما أنكم أحياء في هذه الدنيا، **فأنتم في دار ابتلاء**؛ هل تعتقدون أنه بمجرد موت فرعون وهلاكه انتهى الامتحان وانتهى البلاء؟! أبدًا ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ

لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتّى يَسِيرَ الرّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلّا اللَّهَ، والذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٩٤٣ • [صحيح]

[6] [عن سعد بن أبي وقاص:] يا رسولَ اللهِ أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً قال: الأنبياءُ ثمَّ الامثلُ فالأمثلُ حتى يُبتلى العبدُ على قدرِ دِينِه ذاك فإنْ كان صُلْبَ الدِّينِ ابتُلِيَ على قدرِ ذاك وقال مرةً: أشدُّ بلاءً وإنْ كان في دِينِهِ رِقَّةٌ ابتُلِيَ على قَدْرِ ذاك وقال مرةً: على حَسَبِ دِينِهِ قال: فما تَبرحُ البَلايا عن العبدِ حتى يَمشيَ في الأرضِ يعني وما عليهِ من خطيئةٍ قال أبي: وقال مرةً عن سعدٍ قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ
أحمد شاكر (ت ١٣٧٧)، مسند أحمد ٧٨/٣ • إسناده صحيح •

تَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف ١٢٩]، ستنتقلون إلى امتحان آخر، وبالفعل أهلك عدوهم، وبالفعل استخلفهم في الأرض، وبالفعل حينما نظر إليهم -سبحانه وتعالى- في وقت التمكين رسبوا!!، صبروا على الاستضعاف ولم يصبروا على التمكين، صبروا على البلاء ولم يصبروا في السراء!

هذه رسالة لكل متعجلي التمكين.

قد يكون ما أنت فيه أنفع لدينك، قد يكون ما أنت فيه أنفع لعقيدتك، لقلبك، الله يسوق هذه البلاءات ليُخرج منّا أنواع العبوديات، لا ليخرج منا اليأس والقنوط والإحباط، هذه البلاءات ليُظهر -سبحانه وتعالى- ما بداخل أهل طاعته، ما بداخل عباده المخلصين، ليُخرج ما بداخلهم من إيمان، من معانٍ لا تخرج إلا في وقت الضراء! كيف يصطفي الله -عز وجل- الشهداء بدون تسليط للكافرين على المؤمنين؟ كيف تخرج معاني البذل والتضحية وإراقة الدماء وبذل الأموال؟ كيف تخرج هذه المعاني بدون المداولة بين الحق والباطل؟!

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَ﴾[آل عمران ١٤٠]، من حِكم المداولة بين الحق والباطل وطول فترة الاستضعاف، إخراج هذه العبوديات التي لا تخرج إلا في هذه الأوقات.

إذًا وجودك في هذا الوقت -وقت الاستضعاف- فرصة رائعة لإخراج العبودية، لتُريَ الله منك الخير، ولِتريَ الله -عز وجل- منك البذل والتضحية؛ لذلك كان يتمنى الصادقون المخلصون نصرة الدين في وقت الاستضعاف. هكذا قال ورقة بن نوفل حينما سمع ببعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليتني أكون فيها جذعًا)[٧] شابًا (حينما...) هل حينما تنتصر؟ هل حينما تُمكَّن؟! حينما تفتح مكة؟!أبدًا.. تمنّى الوجود والشباب والقوة في أشد لحظات الاستضعاف "لحظة الخروج"، (حينما يُخرجك قومك)!

---

[٧] [عن عائشة أم المؤمنين]: عَنْ عائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أنَّها قالَتْ: أوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصّالِحَةُ في النَّوْمِ، فَكانَ لا يَرى رُؤْيا إلّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخْلُو بغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيه - وهو التَّعَبُّدُ - اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ قَبْلَ أنْ يَنْزِعَ إلى أهْلِهِ، ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِها، حتّى جاءَهُ الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ فقالَ: اقْرَأْ، قالَ: ما أنا بقارِئٍ، قالَ: فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، قُلتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثّانِيَةَ حتّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، فَقُلتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثّالِثَةَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: {اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنْسانَ مِن عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ ورَبُّكَ الأكْرَمُ} [العلق: ١- ٣] فَرَجَعَ بها رَسولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فَدَخَلَ على خَدِيجَةَ بنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها، فقالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حتّى ذَهَبَ عنْه الرَّوْعُ، فقالَ لِخَدِيجَةَ وأَخْبَرَها الخَبَرَ: لقَدْ خَشِيتُ على نَفْسِي فقالَتْ خَدِيجَةُ: كَلّا واللَّهِ ما يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نَوائِبِ الحَقِّ، فانْطَلَقَتْ به خَدِيجَةُ حتّى أتَتْ به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ

الذي يفهم –مثل ورقة– أنه من سنن الله أن هناك مرحلة من المراحل اسمها مرحلة الإخراج والخروج. (يخرجك قومك) يفهم يقينًا أن هناك مرحلة اسمها مرحلة الدخول والتمكين ﴿أَدۡخِلۡنِى مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِى مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾[الإسراء ٨٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ﴾[القصص ٨٥] آية القصص نزلت وهو خارج –صلى الله عليه وسلم– من مكة. يقول له الله–عز وجل–الذي أخرجك سيعيدك ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ ستُردّ إلى مكة مرة أخرى.

من الواضح أن ورقة ابن نوفل، من فهمه سنن الله –عز وجل–، ومن فهمه الناموس الذي أنزل على موسى، وفهمه النصرانية، ومن فهمه معاملة الله –عزو جل– لرسله، يعلم أن هناك مرحلة استضعاف، وهناك مرحلة اسمها مرحلة التمكين، فتمنى ورقة أن يكون موجودًا في لحظة الاستضعاف، لذلك روي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (لا تسبوا ورقة فإن له جنة أو جنتين)[8]. تخيل!! لا تسبوه؛ هو تمنى نصرة الدين في وقت الاستضعاف!!

نعود للآيات، قال موسى –عليه السلام–: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف ١٢٩]، فقال ربنا –سبحانه وتعالى–: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف ١٣٠]

هنا مرحلة جديدة في مرحلة الآيات، سيدنا موسى أول ما عرض الحق رفضوه، أخرج الآيات فرفضوها، فاتهموه بالسحر، فاستعد للمناظرة، فناظرهم وانتصر، فرفضوا الآيات، آيات متتابعات متتاليات.

ذكرنا أن من أهم المحاور في سورة الأعراف: التعامل مع الآيات؛ لذلك أكثر سورة فصّلت ووضّحت آيات سيدنا موسى هي سورة الأعراف، الذكر المفصل للآيات لم يأتِ إلا في سورة الأعراف؛ بقية

أَسَدِ بنِ عبدِ العُزّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وكانَ امْرَأً تَنَصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتابَ العِبْرانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالعِبْرانِيَّةِ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شيخًا كَبِيرًا قدْ عَمِيَ، فقالَتْ له خَدِيجَةُ: يا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ، فقالَ له ورَقَةُ: يا ابْنَ أخِي ماذا تَرى؟ فأخْبَرَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ ما رَأى، فقالَ له ورَقَةُ: هذا النّامُوسُ الذي نَزَّلَ اللَّهُ على مُوسى، يا لَيْتَنِي فيها جَذَعًا، لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ، قالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلّا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ ورَقَةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ. وقال: يونس ومعمر (بوادره)
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)

[8] [عن عائشة أم المؤمنين]: لا تَسُبُّوا وَرَقَةَ فإنِّي رأيتُ لهُ جَنَّةً أو جَنَّتَينِ
ابن كثير (ت ٧٧٤)، البداية والنهاية ٩/٣ • إسناده جيد وروي مرسلا وهو أشبه

السور تأتي مفرقة "العصا"، "العصا واليد"، الإجمال، كلمة ﴿تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ﴾[9] فقط، وقد وردت –أظن– في سورة القصص وسورة النمل، وكل واحدة لها دلالة معينة في السياق، لكن التفصيل ﴿ٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾[الأعراف ١٣٣] هذا التفصيل لم يأتِ إلا في سورة الأعراف. لأن سورة الأعراف فيها تفصيل الآيات؛ لذلك نجد سورة الأعراف لم تذكر لنا تفاصيل غرق فرعون، أما سورة الشعراء فيها تفصيل أكثر في غرق فرعون –في لحظة الإهلاك–، لكن نجد هنا إشارة في آية واحدة، إنما التفصيل جاء أكثر في كيفية إعراضهم عن الآيات.

هذا ملمح مهم جدًا في التعامل مع قصص القرآن، أن كل سورة عندما تذكر جزء من القصة، هذا الجزء مناسب لسياق القصة؛ بمعنى قصة موسى والخضر جزء من حياة سيدنا موسى لم يذكر إلا في سورة الكهف، وكما ذكرنا في سورة الأنعام هذا الجزء من حياة سيدنا إبراهيم لم يذكر إلا في سورة الأنعام، فأيضًا تأتي سورة معينة تستفيض في ذكر موضع من قصة، وتُجمل موضعًا آخر، تجد العكس يحدث في سورة أخرى. ما ذُكر مفصلًا في سورة الأعراف يُذكر مجملًا في سورة أخرى، وما ذكر مجملًا في سورة الأعراف يُذكر مفصلًا في سورة أخرى، كل هذا متناسب مع سياق وموضوع السورة أو مواضيع السورة.

فقال ربنا هنا أنه طالما أعرضوا عن الآيات الواضحات البينات التي جاء بها الرسول، تأتي الآيات القدرية، تأتي الآيات الكونية، يأتي قدر الله –عزو جل– من البلاء ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ أي الجدْب، ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[الأعراف ١٣٠] قيل: هذا كان في البوادي –أي السنين–، وهذا كان في القرى –النقص في الثمرات–.

أيًا كان (السنة) بمعنى الجدب. لذلك يقال: يفضل عندما تذكر لفظ (عام)، العام يكون فيه الخير، لذلك عندما قال سيدنا يوسف –عليه السلام– قال: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾[يوسف ٤٧]، لكن لما أتى العام الذي فيه الخير قال: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾[يوسف ٤٩]، لم يقل ثم تأتي سنة فيها يغاث الناس. لذلك السنوات التي تعب فيها نوح –عليه السلام– كانت سنين، لكن لما

[9] ذكرت هذه الآية في [النمل ١٢] و[الإسراء ١٠١].

انتهت الدعوة كانت أعوامًا، قال: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[العنكبوت ١٤] هذه التفرقة بين السنة والعام .

لكن لا يشترط كلمة (سنين) أنها سنوات طويلة، المقصود أن الزمان كان زمان جدب، لكن لما يقال (أسْنَت القوم) أي: دخلوا في السنة، أي دخلوا في الجدب. فهنا ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾[الأعراف ١٣٠] أي بالجدب.

* لكن لماذا ربنا –سبحانه وتعالى– عاملهم بهذا البلاء؟

– حتى يعودوا، إذا لم يستفيدوا من الآيات التي جاء بها موسى، قد تنكسر عزيمتهم وينكسر الجبروت والطغيان، ويعودون إلى الله —عز وجل– ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[الأعراف ١٣٠]

وهذا الجدب لم يكن متواليًا، البلاء لم يكن متواليًا كان هناك فترات فيها رخاء، فترات رخاء وفترات جدب. ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾[الأعراف ١٣١]عندما تأتي فترات الرخاء، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ ونحن نستحقها، هذا بتخطيط فرعون، تخطيط الملأ والنخبة، والقيادة الحكيمة والراشدة. ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ نحن نستحق هذا بجهدنا وطاقتنا وبذلنا!

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وهذا بسبب "الإرهابيين"، بسبب موسى ومن معه، بسبب الذين يريدون أن يفسدوا في الأرض! كلما يأتيهم خير يزعمون أنه بجهدهم، وكلما أتى فساد فهو بسبب موسى ومن معه!!

في حين أن العكس هو الذي يحدث، بمعنى لولا الدواب أصلًا –حتى لو خرج منهم أهل الإيمان– لولا الدواب لم يمطروا فتأتيهم السيئة بسبب ذنوبهم، فاستطاع فرعون أن يقنع الناس أن ما مروا به من جدب وبلاء هو بسبب موسى ومن معه، في حين أن العكس هو الذي يحدث.

وتجد أن من رحمة الله أنه وهو يبتلي أهل الكفر، أن البلاء ليس كثيرًا! فقال ربنا: ﴿فَإِذَا﴾: التي تأتي للكثرة، ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾[الأعراف ١٣١] معرفة، لكن لما أتى مع السيئة قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ "إن" للقلة، و"سيئة" نكرة؛ أي حتى فترات البلاء لأهل الكفر لم تكن متتالية متتابعة لإهلاكهم، لكن كانت ليعودوا. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم ٤١]

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾[الأعراف ١٣١] الحسنة جاءت معرفة. ولفظ "المجيء" لأنها منتظرة، عندما تقول: "جاء فلان" لأنك أنت منتظره، فهم ينتظرون الحسنة. وجاءت بـ(إذا) التي تفيد الكثرة، والحسنة مُعرَّفة.

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ﴾ هنا اهتمام بالخطاب الإعلامي، كلما يجيء الرخاء يخرجون بخطاب إعلامي، هذا مجهود سيادة الفرعون الذي فعل وفعل وفعل!! ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ يتشاءمون، هذا بسببهم، يخرجون بخطاب أن هذا بسببهم، هم أفسدوا، هم فعلوا ومن معه!! ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبتهم التي تشاءموا منها كانت بسبب معصيتهم، وكله بفعل الله، وكله بتقدير الله، ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

- هنا مبحث طويل في (الطِّيَرة)، لكن ليست قضيتنا، تفرع فيه الإمام القرطبي في التفسير، ونجد فيه مبحث عن الطيرة.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي بتقدير منه -سبحانه وتعالى-، أو أن ما أصابهم بسبب بذنوبهم، بتقدير منه -سبحانه وتعالى- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أن الله -عز وجل- يبتليهم ليعودوا، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- **نلاحظ هنا مراحل حِلم الله:**

- أول مرحلة: مجيء موسى، رفضوها.
- ثاني مرحلة: العصا واليد، رفضوها.
- ثالث مرحلة: مناظرة السحرة، رفضوها.
- رابع مرحلة: السنين ونقص من الثمرات، رفضوها.
- خامس مرحلة: الآيات؛ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.
- هناك مرحلة سادسة مختلف فيها اسمها الرجز، بعضهم قال: مرحلة وبعضهم قال لا، فالرجز مختلف في معناه.

لو اعتبرنا أن الرجز مرحلة-، يكون ست مراحل قبل الإهلاك؛ مجيء موسى بالحق، ثم الآيات، ثم مناظرة السحرة، ثم السنين ونقص من الثمرات، ثم هذه الآيات الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ثم الرجز على القول أنه عذاب مختلف.

فلما أتى الجدب والسنين والمفترض أن يعودوا إلى الله، لكن قالوا لن نعود! ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف ١٣٢]. إشكالية عظيمة جدًا أن الناس أحيانًا البلاء يصرفهم عن الله بدلًا من أن يرجعهم لربهم، إشكالية خطيرة في عقلية الإنسان.

لذلك هناك تعبير جميل ذكره الإمام الرازي في تفسيره سورة أخرى –غير سورة الأعراف– يقول: "أحيانًا الله–عز وجل– يبتلي المشرك الذي يعبد الصنم، يبتليه بمرض أو ببلاء؛ ليتضرع إلى الله، فالمشرك لما يأتيه البلاء يزداد قربًا من الصنم، ويتضرع إلى الصنم، فيزداد بعدًا عن الله، فالبلاء لا يؤثر فيه، فهذا يستحق الإهلاك".

أتته الآيات الشرعية فرفضها، وأتته الآيات الكونية فرفضها أيضًا! فكيف سيرجع؟، فهذا يستحق الإهلاك، يطبع على قلبه!

فهؤلاء لما أعرضوا عن الآيات الشرعية التي جاء بها موسى جاءتهم الآيات القدرية الكونية من الجدب، فأعرضوا عنها، فأتتهم آيات أعظم، فقبل أن تأتيهم الآيات الأعظم قالوا: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾!! وكأنهم يقرُّون أنها آية، لكنهم يرفضونها، هنا نجد –كما قلنا– التعامل الخاطئ مع الآيات، ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا﴾ ألم تقولوا أنه ساحر ثم ناظر السحرة وأفحمهم؟ ألا زلتم تقولون أنه ساحر؟!

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، قرروا أن أي شيء سيأتي من قِبل موسى –عليه السلام– سيعتبرونه مهما كان عظيمًا ومهما عجزوا عن مواجهته أنه سحر، سيتوقفون عن معارضة ما يأتي به موسى، وأصدروا قرارًا بأن كل ما يقوله موسى هو مجرد سحر؛ كفعل مشركي قريش، فهذا ما فعله مشركو قريش حينما عجزوا عن معارضة القرآن فقالوا: كل ما يقوله هو شعر، سحر، لكن لا نستطيع أن نعارضه. إن كان هو من فعل البشر فافعلوا مثل ما فعل! ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة ٢٣]، فلم يستطيعوا أن يفعلوا ذلك.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾[الأعراف ١٣٢] قرار بإغلاق العقل، قرار بعدم التفكر في أي آية تعرض عليهم إذا سمعوا بها. ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ﴾ هنا هذه الآية مليئة بالتأكيدات، لم يقولوا "فلن نؤمن". لأن كلمة "لن نؤمن" جملة فعلية، أما ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ جملة إسمية، نفي الجملة الإسمية

أشد في النفي من نفي الجملة الفعلية؛ لذلك قال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي﴾ لم يقل: "لن أبسط إليك يدي لأقتلك" بل قال: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾ [المائدة ٢٨].

تعبير: ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف ١٣٢] كتعبير: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ﴾.

﴿فَمَا نَحۡنُ﴾ جملة إسمية نفي ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وكأننا قد نؤمن لأي أحد إلا أنت، أنت تحديدًا لن نصدقك. ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ﴾ والباء هنا فيها نوع من المقاربة والإلصاق؛ أي لن نقارب الإيمان فضلًا عن أن نؤمن لك، لا تتوقع أننا حتى سوف نفكر في القضية، فتوقف عن عرض الآيات ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

لما وصلوا إلى هذه المرحلة، تغيرت معاملة ربنا –سبحانه وتعالى– الآيات القدرية أصبحت أشد، فالسنين والنقص من الثمرات كانت بسيطة، وكانوا يصلحون للتعايش معها لم تؤثر فيهم، فانتقل العقاب إلى عقاب أشد. ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ...﴾[الأعراف ١٣٣]. هم قالوا: مهما تأتنا به من آية لن نتأثر، فأرسل الله آيات عظيمة جعلتهم يتأثرون ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ نشرح أولًا: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾، ثم نذكر سريعًا هذه الأشياء الخمسة.

- ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ "مفصلات" فيها قولين:

– القول الأول: **أنها آيات واضحات**، أنها واضحة من عند الله –عز وجل– لا يستطيعها البشر فكانت حينما تأتي هذه الآية يفزعون إلى موسى، ويطلبون منه أن يصرف هذه الآية عنهم، فكلمة ﴿مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ تأتي بمعنى واضحات.

– القول الثاني: أن معنى مفصلات أي: **مفصولة عن بعضها البعض**، بينها فصل، فكانت الآية تنزل عليهم، الطوفان والجراد والقمل؛ كل آية تأتي مثلًا تمكث أسبوعًا، ثم يكون هناك فاصل شهرًا يتفكرون، يا ترى من أتى بالطوفان ومن الذي رفعه، من الذي أتى بالجراد ومن الذي رفعه، من الذي أتى بالضفادع ومن الذي رفعها، يفكرون في الآية، فتأتي الآية تستمر أسبوعًا متواليًا –مثلًا– أو شهر، الروايات التي وردت في الإسرائيليات، أن الآية تظل أسبوعًا ويمكثون شهرًا ليتفكروا في الآية، فلا يفيقون ولا يعودون إلى الله، فتأتي الآية التي تليها تمكث أسبوعًا متواصلًا طوال الأسبوع، يلجؤون إلى موسى،

فيدعو موسى ربه نهاية الأسبوع، فينصرف عنهم البلاء، فيعودون إلى الفجور والكفر والطغيان، وتأتي الآية التي تليها، إذًا معنى ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: بينها فواصل زمنية، واللفظ يحتمل المعنيان.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾.

– الطوفان: هو الماء المعروف، ولو اختار بعض أهل العلم أن الطوفان من أصلها اللغوي من الطواف، فقالوا: هو كل ما طاف بهم من العذاب، قالوا الغيم وقالوا المطر وقالوا السيول أو الرياح طافت بهم ليس الطوفان المتبادر كطوفان نوح. وأيًّا كان، الطبري مال إلى العموم، أن الطوفان هو كل عذاب طاف بهم، لكن الطوفان يقذف إلى الذهن مباشرة قضية أن الماء يغمرهم، ولا يصيب الأرض التي يمكث فيها بنو إسرائيل.

– الجراد معروف، اجتاح الجراد أرضهم وأكل ثمارهم ودمر حياتهم، ثم رفعه الله –عز وجل– عنهم.

– ثم جاء القمل، الحشرات المعروفة، وآذتهم وانتشرت فيهم انتشارًا عجيبًا.

وحينما تقرأ كلمة الجراد والقمل والضفادع، وهي حشرات وحيوانات تعلم أن هذه الحشرات مأمورة بأمر الله –عز وجل–، أمرها الله –عز وجل– أن تذهب، كما أمر الحيتان في آخر السورة أن تذهب إلى الشاطئ يوم السبت ثم تنصرف، فكل شيء يتحرك في الكون بأمره –سبحانه وتعالى–، حتى الحشرات بأمره –سبحانه وتعالى– (كما فعل يوشع عندما نظر إلى الشمس، وقال: أنتِ مأمورة وأنا مأمور)[10] فالكون كله ملك له –سبحانه وتعالى– الكون كونه، والملك ملكه، يفعل فيه ما يشاء –سبحانه وتعالى–.

[10] [عن أبي هريرة]: إنَّ الشَّمسَ لم تُحبَسْ على بشرٍ إلّا ليُوشعَ لياليَ سار إلى بيتِ المقدسِ وفي روايةٍ) غزا نبيٌّ من الأنبياءِ، فقال لقومِه: لا يتبعُني رجلٌ قد ملك بُضعَ امرأةٍ، وهو يُريدُ أن يبنيَ بها ولمّا يبْنِ بها ولا آخرُ قد بنى بنيانًا ولمّا يرفَعْ سقفَها، ولا آخرُ قد اشترى غنمًا أو خلِفاتٍ، وهو مُنتظِرٌ وِلادَها، قال: فغزا، فأدنى للقريةِ حين صلاةِ العصرِ، أو قريبًا من ذلك، وفي روايةٍ: فلقي العدوَّ عند غيبوبةِ الشَّمسِ)، فقال للشَّمسِ: أنت مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللَّهمَّ احبِسْها عليَّ شيئًا، فحُبِست عليه، حتّى فتح اللهُ عليه، [فغنِموا الغنائمَ]، قال: فجمعوا ما غنِموا، فأقبلت النّارُ لتأكُلَه، فأبت أن تطعَمَه [وكانوا إذا غنِموا الغنيمةَ بعث اللهُ تعالى عليها النّارَ فأكلتها] فقال: فيكم غلولٌ، فليبايعني من كلِّ قبيلةٍ رجلٌ، فبايعوه، فلصقت يدُ رجلٍ بيدِه، فقال: فيكم الغلولُ، فلتبايعني قبيلتُك، فبايعته، قال: فلصقت بيدِ رجلَيْن أو ثلاثةٍ [يدُه]، فقال: فيكم الغلولُ، أنتم غللتم، [قال: أجل قد غللنا صورةَ وجهِ بقرةٍ من ذهبٍ]، قال: فأخرجوا له مثلَ رأسِ بقرةٍ من ذهبٍ، قال: فوضعوه في المالِ، وهو بالصَّعيدِ، فأقبلت النّارُ فأكلته، فلم تحِلَّ الغنائمُ لأحدٍ من قبلِنا، ذلك بأنَّ اللهَ تبارك وتعالى رأى ضعفَنا وعجْزَنا فطيَّبها لنا، وفي روايةٍ) فقال رسولُ اللهِ عند ذلك: إنَّ اللهَ أطعمنا الغنائمَ رحمةً بنا وتخفيفًا، لما علِم من ضعفِنا
الألباني (ت ١٤٢٠)، السلسلة الصحيحة ٢٠٢ • صحيح

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾

– الدم:

- قيل أن مياههم كانت تتحول إلى دم، فلا يستطيعون الشرب وكانوا عطشى، وكانوا يجأرون ويذهبون إلى بني إسرائيل، وكانت المرأة من بني إسرائيل تعطي المرأة القبطية الماء، فيتحول في يد القبطية إلى دم.
- وقيل: أن الدم هو مرض الرعاف، كان الدم ينزل من أنوفهم... أيًّا كان، هذه الآية تحديدًا في كتب التفاسير –ولاسيما بعض المتقدمين– مليئة بالإسرائيليات، وهذا لا يخصنا في وقفتنا مع سورة الأعراف.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾

*هل أثرت فيهم هذه الآيات؟

– ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ﴾، في سورة الزخرف ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾[الزخرف ٤٩].

أريدك أن تتخيل الكائن الخرافي الذي تكلمنا عنه من قبل، بعد كل ما رآه، تخيل ينزل مثلًا الجراد ويجتاح البلاد؛ ألا يجب أن يتحرك فرعون –وآلهتهم– وينقذهم الآن؟! فلو سألت أحدًا من القبط ماذا فعل ربكم؟ لماذا لا يستطيع فرعون أن يذهب عنكم الجراد؟ أليس هو ربكم الأعلى؟! أليس هو من يخاف عليكم ويخاف على الفساد في الأرض؟! فليذهب عنكم الجراد إذًا!! فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا، فيذهب جزء من الملأ إلى موسى ويطلبون منه ويلجؤون ويجأرون إليه، ويتضرعون إليه: ادع ربك أن يصرف عنا الجراد، ولو صرفت عنا الجراد سنعطيك بني إسرائيل، فيقوم موسى –عليه السلام– ويدعو ربه فيرفع الجراد، فيعودون إلى الكفر والطغيان!

هل تتخيل؟! عندما يدعو سيدنا موسى ربه، ويصرف الله الجراد عنهم! من الممكن أن يخرج فرعون في خطاب إعلامي: ما رأيكم فيما قمت به، وصرفت عنكم الجراد والناس يصدقون!!. هناك رواية في الإسرائيليات ذكرها الإمام الطبري في سورة البقرة، أنه لما ضرب موسى –عليه السلام– البحر بعصاه، ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[الشعراء ٦٣]، وانطلق موسى وسار في البحر، فلما وصل فرعون إلى البحر، وخاف بعض جنوده أن يسير في البحر، التفت إليهم فرعون وقال: ألا ترون إلى البحر كيف انفرق خوفًا مني وفرقًا مني؟! والناس صدقوا؛ بدليل أنهم مشوا وراءه! فغرقوا معه! ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[طه ٧٩] استطاع أن ينزع العقول ووضع مكانها أي شيء!

﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾[الأعراف ١٣٣] استكبروا عن الآيات وأصّروا واستكبروا استكبارًا، وأصروا في الإجرام، واستمروا في الإجرام ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[الأعراف ١٣٤].

هذه الآية اختُلف فيها:

١) هل كلمة الرجز هنا يقصد بها أي عذاب من العذاب الذي ذكر، أي أن الرجز مقصود به الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ كل عذاب عندما كان ينزل كان اسمه رجز.

– فيكون معنى الآية: ولما وقع عليهم أي عذاب من العذاب السابق. بعد كل عذاب ينزل كانوا يذهبون إلى موسى ويقولون: ﴿يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا﴾ هذا العذاب، يمكن أن تضع مكان الرجز الطوفان، أو الجراد أو القمل أو الضفادع أو الدم.

بعد كل آية كانوا يذهبون إلى موسى ويقولون له: "لو كشفت عنا هذا العذاب تحديدًا سوف نعطيك ما طلبت". من أول اللقاء هنا في سورة الأعراف، أول ما طلبه موسى أن يرسلوا معه بني إسرائيل، سنعطيك ما تريد بل سنزيد الإيمان.

وإن كان كثير من المفسرين قال: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ ليس المقصود بها لنؤمنن بك، لا يقصدون الإيمان برب موسى.﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ أي: سنصدقك، ونرسل معك بني إسرائيل، "لنصدقك" لا تعني نؤمن بما أتيت به

من شرع، نصدق أنك رسول، فافعل ما تشاء واعبد أنت وقومك ما تشاؤون وانصرفوا عنا، هذا قول أن الرجز المقصود به العذاب الذي ذكر في الآية التي سبقتها.

٢) القول الثاني: أن هذا الرجز عذاب آخر (وهو الطاعون) أن كل الآيات حينما لم تؤثر فيهم ﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾[الأعراف ١٣٣] لم يؤثر فيهم، فابتلاهم الله –عز وجل– بطاعون أهلكهم، هذا الطاعون هو الذي أثر فيهم، ودفعهم أن يجأروا ويلجؤوا إلى موسى.

* أيًّا كان الرجز هو العذاب السابق، أو العذاب المخصوص الذي هو الطاعون، كان عذابًا جعلهم يجأرون ويلجؤون إلى موسى، وأعطوا عهدًا وميثاقًا لموسى؛ لو كشفت عنا هذا العذاب سواء كان الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم أو الطاعون، لو كشفت عنا هذا العذاب ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الأعراف ١٣٤].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾[الأعراف ١٣٥]ما قيل في الاختلاف في الرجز، سيقال في هذه الآية، إذًا ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ ما هو الرجز؟ إما الآيات السابقة الخمسة (والجراد الطوفان والقمل والضفادع والدم) أو الطاعون.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ كان من الممكن أن يقول ربنا (فلما كشفنا عنهم الرجز إذا هم ينكثون)، كلمة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ تدلّ أن عذاب الله –عز وجل– إلى أجل، لا ينزل بعجلة المتعجلين، الله –عز وجل– لا يعجل بعجلة أحد لنزول العذاب. لذلك ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[الأعراف ١٣٧] كما سيأتي في الآية، حينما جاء الوقت الذي أراده الله، لظهور كلمات الله من التقدير إلى الوقوع العملي، أو يسمونه "الوقوع التنفيذي في الأرض" –وسنشرح هذا المعنى– حينما جاءت هذه اللحظة، قدَّر الله إغراق فرعون. فإهلاك الظالمين له موعد لا يُتقدم هذا الموعد بعجلة أحد إنما ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾[الأعراف ١٣٥] طالما أن ربنا قدر إلى هذه اللحظة سيعيش هؤلاء الطغاة قدّر الله ذلك.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا﴾، إذا هذه فُجائية، وقالوا أيضًا: تفيد السرعة.

﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ لو قلنا مثلًا أن الرجز هنا العذاب السابق، الذي هو الجراد مثلًا أو أي لون من ألوان العذاب الخمس، كانوا في اليوم الذي يرفع فيه الجراد يرجعون في عهدهم، وينقضون العهد. كمن يقول يا رب أنهي الامتحانات، وأنجح يا رب، والله لو نجحت يا رب وسأفعل ويا رب، بعد ما يأتي بالنتيجة، وينجح ينقض كل العهود، لا ينتظر حتى يومين ! بل في يوم النتيجة ينقض العهد والميثاق مع الله –عز وجل– !

يا رب لو شفيتني يا رب، سأفعل وسأفعل، وعندما يشفيه الله لحظة خروجه من المشفى، يعصي الله – عز وجل–!

يوجد أناس بمجرد أن تخرج من البلاء ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ قلنا مسألة نقض العهود موجودة أيضًا في السورة ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٍ﴾[الأعراف ١٠٢].

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾[الأعراف ١٣٥]

– والنكث: الحبل الملفوف المحكم أو الصوف المغزول المحكم يُفك، فهو فعل أخرق؛ فعل أصلًا فيه نوع من الحُمق، فعل أحمق أن يكون الشيء فيه جمال وقوة ومتانة وإحكام، وأنت تنقضه، هكذا العهود مع الله الذي ينقضها هو يقوم بفعل أحمق ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ (الفاء) مباشرة ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾[الأعراف ١٣٦] باء السببية ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قلنا هذا من محاور سورة الأعراف، التعامل الخاطئ مع الآيات، لذلك جاء النص عليها.

هنا ربنا لم يذكر لنا تفاصيل الإغراق والإهلاك ، ذكر لنا تفاصيل الإعراض؛ لأن هذا غرض أصيل من سورة الأعراف غير سورة الشعراء، الشعراء حوت تفاصيل الحوار، فكرة الشعراء كيف يضادون الوحي بالشعر، فهناك في محاورة فرعون مع موسى كانت طويلة، وتفاصيل الإغراق في الشعراء كانت أطول. الإغراق والإهلاك هنا كان في آية واحدة جاءت في آية واحدة ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾.

– السبب ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ هذا محور جديد يأتي، أو ذكر قبل ذلك، وسيأتي في ختام سورة الأعراف..كلمة ﴿غَٰفِلِينَ﴾ سنختم بها سورة الأعراف، مرتين في موضعين.

* الغفلة نوعان: غفلة أهل الشرك، وغفلة أهل الإيمان، ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾.

* هل الإنسان يحاسب على الغفلة؟

- قالوا: الغفلة التي تؤدي إلى الإعراض، نعم يُحاسب عليها الإنسان، فلو أن شخصًا سهى سهوة، ثم أفاق يعفو الله -عز وجل- عنه، لكن الغافل المعرض الذي تُتلى عليه الآيات لا يريد أن يسمعها يحاسب، لذلك آخر سورة الأعراف ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾[الأعراف ٢٠٤] التعامل الصحيح مع الآيات، سيأتي في آخر سورة الأعراف، كيف نتعامل تعاملًا فيه إيمان ويقين، وإخبات مع الآيات.

بدأت سورة الأعراف ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾[الأعراف ٢] آخر سورة الأعراف أنت تستمع إلى الوحي، لم يعد هناك حرج، بل أنت قفزت من هذه المرحلة، انتقلت إلى مرحلة الاستماع والإنصات لتطبق الآيات. لكن هنا كان العقاب بسبب ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾[الأعراف ١٣٦].

ثم الختام: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾وعد الله تحقق، ليس كل بني إسرائيل لاقى هذا الوعد، اختار الله -عز وجل- طائفة لتلاقي هذا الوعد ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف ١٣٧].

*وقفات سريعة:

ما هي الأرض؟ ما معنى تمت كلمة ربك؟ ما معنى يعرشون؟

الأرض:

- اختلف أهل العلم على أربع أقوال:

ونسينا أن نذكر أن الأرض في آية: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ﴾[الأعراف ١٢٨] أيضًا كان فيها اختلاف، لكن هناك يوجد قول أنها الجنة، لكن قول (الجنة) لم يرد هنا؛ لأنهم ورثوا الأرض ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾[الأعراف ١٣٧].

- القول الأول: كثير من أهل العلم -وهذا واضح من السياق التاريخي للأحداث- أن مشارق الأرض ومغاربها هي أرض الشام، ليست أرض مصر قالوا: الدليل ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾. قالوا لأن كلمة ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ مذكورة في القرآن ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى

ﵟٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥﵞ[الإسراء ١]، فالأرض المبارك فيها هي أرض الشام، فكلمة ﵟمَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاﵞ[الأعراف ١٣٧] هي أرض الشام.

والسياق التاريخي أن موسى –عليه السلام– لما نجى من مصر، وفرعون أغرقه الله وأهلكه الله، جاء فرعون آخر، الفراعنة استمروا فترة زمنية قبل أن يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر من مصر تمامًا، مكثوا فترة الفراعنة في مصر، لكن أين حدث التمكين لبني إسرائيل؟ حدث التمكين في الشام على يد من؟ يوشع بن نون –عليه السلام–.

مكثوا فترة في التيه بعدما عبروا البحر، هذه الفترة مات فيها موسى –عليه السلام– ومات قبله هارون، هارون مات أولًا –عليه السلام– مات في التيه، ثم مات موسى –عليه السلام–.وقد دخلوا التيه بسبب رفضهم الدخول للأرض المقدسة، ثم أرسل الله –عز وجل– إليهم يوشع بن نون، ودخل بهم الأرض المقدسة، فكان التمكين في أرض الشام، فالأرض هي أرض الشام.

- القول الثاني: أنها مصر، وفي بعض الحفريات، لكن الأمور التي كان ذكرها رشيد رضا قصص غريبة وقد تتعارض مع نصوص القرآن، أن هناك فرعونًا هرب، ذهب إلى الحبشة وجهز جيشًا، ورجع إلى مصر مرة أخرى، وهذه كانت فترة الوراثة، لكن هذا القول ضعيف، إذًا من قال مصر، بعيدًا عن الرواية التاريخية التي ذكرها –رشيد رضا – في المنار.

- القول الثالث: الشام ومصر، من قال مصر كيف قالها؟ قال: في زمن سليمان وداوود؛ لأن سليمان وداوود من بني إسرائيل، أنبياء بعثوا في بني إسرائيل سيدنا سليمان وسيدنا داوود. ﵟأَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَاﵞ[البقرة ٢٤٦] في آخر الآيات قال: ﵟوَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَﵞ[البقرة ٢٥١]، فداوود من بعد سيدنا موسى، داوود من أنبياء بني إسرائيل.

فقالوا: التمكين الذي حدث لبني إسرائيل في مصر، كان في زمان داوود وزمان سليمان، فأحيانًا يأتي الوعد، لكن ينفذ بعدها بفترة لكي لا يتعجل الناس للتمكين.

- القول الرابع: عموم الأرض كلها وقالوا: أيضًا هذا حدث في زمان سليمان وداوود، أن سيدنا سليمان ملك جزءًا كبيرًا من الأرض.

✓ لكن الأصح الذي عليه كثير من المفسرين أنها أرض الشام.

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[الأعراف ١٣٧]، قالوا: ما معنى ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ كلمات الله تامة- سبحانه وتعالى-.

قالوا بمعنى: ظهرت للواقع، الواقع الفعلي لهذه الكلمات، الله -عز وجل- قضى أمر ظهور هذا الأمر واقعيًا، هنا هذا معنى تمام الكلمات، ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[المائدة ٣] ظهور التمكين الكامل لهذا الدين لأول مرة كان في هذه اللحظة.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[الأعراف ١٣٧] هذه الكلمة، هي التي قالها لهم موسى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ﴾[الأعراف ١٢٩] قيل كان بين الوعد ومجيئه ٢٠ سنة وقيل ١٣ سنه، أيا كان العدد، قيل السنوات أيضًا إشارة إلى أن التمكين يتأخر بين الوعد وبين حدوث التمكين، فترة زمنية قد تطول وقد تقصر، النبي -عليه الصلاة والسلام - كان في مكة يقول: (والله ليتمن الله هذا الأمر)[١١] كانت فترة زمنية طويلة.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[الأعراف ١٣٧] كل هذا بماذا؟! باء السببية ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ عندنا باءين مهمين جدًا:

- ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف ١٣٦] وكان هذا هو **سبب الهلاك**.

- كان **سبب التمكين** ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾[الأعراف ١٣٧] الصبر.

حتى هنا لم يجاهدوا، لم يكن هناك جهاد مفروض عليهم، أما في حقنا "بما صبروا وجاهدوا"؛ لأن الجهاد فرض بعد ذلك، فالذي يريد التمكين لا بد من الصبر ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران ١٤٢] الصبر قضية هامة؛ لأن الصبر معناه الاستمرار، هذه الواو يسمونها واو المعية ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لا بد أن تضم إلى الجهاد الصبر، جهاد من غير صبر جهاد منقطع، دائمًا نتكلم في مسألة أن خط البداية مزدحم، خط بداية أي شيء في العمل للدين مزدحم؛ حفظ القرآن، طلب العلم، الجهاد نصرة الدين، خط مزدحم.

---

[١١] سبق تخريجه.

الذي يستمر ويصبر إلى النهاية قلة قليلة، (الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلة)[١٢]، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[العصر ٣]، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾[الأعراف ١٣٧].. اجعله شعارًا تخرج به.

- سبب الهلاك: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف ١٣٦]
- سبب التمكين: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾[الأعراف ١٣٧]

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف ١٣٧]

(ما) ليست نافية، (ما) موصولة، "الذي كانوا يعرشونه"، دمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ودمرنا أيضًا ما كانوا يعرشون. كل الزينة والقصور والبناء، أشبه بقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾[القصص ٨١] هذه الدار التي كان يتكبر بها قارون ويغري بها الناس، ويفسد على الناس عقيدتهم؛ بهذا القصد دمرهم الله -عز وجل-، أيضًا كل الملك والجبروت والسلطان دمره الله.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف ١٣٧]، أين فرعون؟ أين قصره؟ أين جبروته؟ أين الملأ؟ أين الجنود؟ أين كل هؤلاء؟!! ذهب الله -عز وجل- بهم، وبقي إيمان السحرة ينفعهم يوم القيامة، وبقي صبر بنو إسرائيل الذين جاهدوا بعد ذلك ينفعهم يوم القيامة، هذا الصبر هو الذي يبقى هو الذي ينفع الإنسان يوم القيامة.

أسأل الله -عز وجل- أن يستعملنا ولا يستبدلنا اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، اللهم استعملنا لنصرة دينك، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

[١٢] [عن عبدالله بن عمر]: إنَّما النّاسُ كالإبِلِ المِئَةِ، لا تَكادُ تَجِدُ فيها راحِلَةً.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤٩٨ • [صحيح]